الأوضاع الاقتصادية في وهران في العصر الوسيط.

(من خلال نصوص الرحالة العرب)

أ/ محمد قويسم
جامعة المسيلة

التطوّر الإقتصادي لأي بلد أو مدينة، يمكن تتبعه من خلال كتب الجغرافيا التاريخية بالدرجة الأولى منها مدينة وهران في المغرب الأوسط في العصر الوسيط، بالدرجة الثانية في مصادر أخرى مثل كتب الفقه والأدب، والتاريخ العام والحسبة بإشارات قليلة لكن مهمة.

تأسست مدينة وهران عام(290هـ/902م) من طرف محمد بن أبي عون، ومحمد بن عبدون، وجماعة من الأندلسيين البحارة الذين كانوا ينتجعون مرسى وهران باتفاق منهم مع بني نفزة وبني مسفن الازداجيين وهي مدينة هامة من مدن المغرب الأوسط في العصر الوسيط وما بعده [1]

عرفت مدينة وهران في العصر الوسيط أوضاع اقتصادية متعددة، حسب ترتيب القطاعات الاقتصادية، في الزراعة والصناعة والتجارة والمال من خلال نصوص الرحالة العرب بداية بابن حوقل والبكري والإدريسي، وأبو الفدا والوزان الفاسي، ومارمول كربخال بحيث كل واحد يمثل قرنا تقريبا وذلك كمايلي:

أولا: ابن حوقل (367هـ/977م)

في الزراعة قال :« **وماؤها من خارجها جار عليها في واد عليه بساتين وأجنة كثيرة فيها من جميع الفواكه**»[2] مما يوضح ثرائها الزراعي بسبب المياه الجارية التي تستخدم في ري البساتين المتنوعة بالفواكه وهذا دون الإشارة إلى الغلات الأخرى كالحبوب و الثروة الحيوانية.

فيما يخص الصناعة لم يشر إليها إطلاقا حيث ركز على التجارة بقوله« ولمدينة وهران مرسى في غاية السلامة والصون من كل ريح وما أظن له مثيلا في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسى فقد اكتنفته الجبال وله مدخل آمن»[3] ويضيف...« وهي فرضة الأندلس إليها ترد السلاع ومنها يحملون الغلال والغالب على باديتها البربر من يزداجة»[4] وهذا بمعنى تقابل مدينة المرية في الأندلس.

ثانيا: البكري (487هـ/1094م):

قال :«ومدينة وهران حصينة ذات مياه سائحة و أرحاء ماء وبساتين»[5] بمعنى تتوفر على المياه ووسائل الري مما أدى إلى كثرة البساتين ذات الغلال المتنوعة.

وذكر أيضا في التجارة وطرقها«وبين مدينة ارزيو و وهران أربعون ميلا»[6] «وطريق آخر من وهران إلى القيروان على بلد قسطيلية»[7] وبالتالي الموقع الهام لمدينة وهران على الساحل وارتباطها بطرق قسطيلية في إفريقية جنوبا نحو المشرق.

ومن خلال التطور التاريخي، تعرضت وهران للتخريب عدة مرات بسبب الصراعات السياسية والقبلية ،المرة الأولى كانت في سنة (297هـ/ 909م)، خربت و أحرقت بسبب الصراع بين عدة قبائل وقبيلة بني مسقن إحدى قبائل المدينة لدماء كانت بينهم. ورغم تعمير المدينة في الموالية(298هـ/910م) بأمر من أبي حميد داود، أو دواس بن صولات، عامل تهرت حتى أصبحت أحسن مما كانت، والتخريب الثاني سنة(343هـ/955م) من طرف محمد بن يعلى بن محمد بن صالح اليفرني، في صراعه مع ازداجة حلفاء بني مسقن الذين أجاروهم سابقا وبقيت وهران مخربة سنين ثم عمرت مرة أخرى[8].

ثالثا: الإدريسي (ت547هـ/1151م) :

حيث ذكر الإدريسي على سبيل المثال:« **و بها فواكه ممكنة وأهلها في خصب والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبد والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير** » [9] و هو مرّة أخرى يفصل في المنتوجات الزراعية النباتية والحيوانية.

أما الصناعة، حيث قال عنها: «**وصنائع كثيرة** »[10] لكن دون تحديد نوعها. وفيما يخص التجارة والمال قال عنها: «**و بها أسواق مقدرة وتجارة نافقة ... ولها على بابها مرسى صغير... ولها على ميلين منها المرسى الكبير و به ترسى المراكب الكبار والسفن السفرية وهذا المرسى يستر من كل ريح و ليس له مثيل في مراسي حائط البحر من بلاد البربر**»[11]. وأضاف موضحا الحركة التجارية في ذلك العصر

«**ومراكب الأندلس إليها مختلفة** »[12] وهو توضيح لموقعها البحري والقريب من الأندلس وجودة واتساع المرسى الكبير.

رابعا: أبو الفدا (721هـ/1321م)

ذكر: « **ومن فاس إلى تلمسان عشرة أيام ومن تلمسان على وهران إلى البحر مرحلة وهي آخر المغرب الأقصى من جهة المغرب الأوسط.. والقطعة الثانية تعرف بالمغرب الأوسط وهي من شرقي وهران عن تلمسان مسيرة يوم في شرقيها إلى آخر حدود مملكة بجاية من الشرق**»[13].

ويضيف قائلا :« **ومن تلك البلاد وهران... بفتح الواو وسكون الهاء وفتح الراء المهملة وبعد الألف نون... وهي مدينة في بلاد البربر من المغرب على ضفة البحر وهي عن تلمسان على مسيرة يوم**»[14] وأكتفى بذكر حدودها البرية والبحرية دون المنتوجات الزراعية والصناعية.

خامسا: الوزان الفاسي (9هـ/15م)

ذكر عن وهران في الزراعة مايلي:« **ديار هبرة في السهل الممتد بين وهران و مستغانم وهم فلاحون يؤدون الخراج لملك تلمسان**»[15] ويضيف بقوله:« **يقع جزء من المدينة في السهل والجزء الآخر في جبل شديد الارتفاع**»[16].

أما في الصناعة لم يذكر إلا إشارة واحدة هي: «**وكان معظم سكانها من الصنّاع و الحاكة يعيش الكثير من أهلها من مدخولهم لكنها لم يسد فيه الرخاء إذ لم يؤكل فيه سوى خبز الشعير**»[17].

وفيما يخص التجارة والمال ذكر أيضا:« **مدينة وهران كبيرة فيها ستة آلاف كانون ...على شاطئ البحر بعيدة بنحو مائة وأربعين ميلا عن تلمسان بها الفنادق**»[18] ويضيف كذلك: «**كانت وهران مهبط التجار القطلونيين والجنويين ومازالت بها الآن دار تسمى دار الجنويين لأنهم كانوا يقيمون بها**»[19] أي مقصد التجار الطليان والأسبان من كل جهات البحر الأبيض المتوسط. وعن المرسى الكبير قال:« **يبعد عن وهران ببضعة أميال ومعناه الميناء الأكبر لأن هناك ميناء ما أظن أن في الدنيا أكبر منه يمكن أن ترسوا فيه بسهولة مئات المراكب والسفن في مأمن من كل عاصفة وإعصار وكان من عادة سفن البندقية أن تلجأ إلى المرسى الكبير عند اكفهرار الجو وترسل بضائعها في قوارب إلى وهران مباشرة وقد استولى الإسبان عنوة على المرسى الكبير قبل سقوط وهران ببضعة أشهر**»[20].

ووضح سبب تدهور تجارتها بقوله:"كانت مملكة تلمسان تحقق مردودا يبلغ 300 ألف وحتى 400 ألف دينار طوال عدة سنوات لما كانت وهران تابعة لها" ويضيف« **كان الوهرانيون دائما أعداء لملك تلمسان لم يقبلوا قط أي والي من ولاته ماعدا أمينا للمال وقابضا لتسيلم مداخيل الميناء ويذكر سبب آخر للتدهور الاقتصادي ولما احتل المسيحيون وهران لم يعد البنادقة يقصدونها لكونها مليئة بالجنود الإسبان**»[21] وتاريخيا احتلها الإسبان، يوم الجمعة 28 محرم915هـ الموافق 8ماي1509م بخيانة يهودي من المهاجرين الأندلسيين، وليس كما ذكر الوزان، لأن تجار وهران كانوا قراصنة ، وهنا يوضح أمرين القرصنة تهمة سابقة للفترة العثمانية، والأمر الثاني الحروب الصليبية استمرت ضد بلاد المغرب الإسلامي دون انقطاع عكس المشرق[22].

سادسا : كربخال مرمول (10هـ/16م)

عن الزراعة قال: « **سكانها فيما مضى من الزراع والرعاة والتجار... ولما كانت أرضها لاتصلح بها الحنطة فْإنها تتلقى كميات وافرة من جميع المناطق المجاورة**»[23].

أما الصناعة، فقد أشار إلى أن معظم سكانها من النساجين بقوله :« **وكان بها كثير من النساجين**»[24].

وأخيرا التجارة ذكر لها بابين يوضحان موقعها شرقا وجنوبا بقوله« **لها بابان باب تلمسان في جهة الجنوب وباب قسطيلية في جهة الشرق**»[25] وأضاف عن موقعها الساحلي« **لا تبعد عن البحر إلا بمرمى حجر**»[26] ويضيف أيضا « **ومدينة وهران معدودة على الدوام في مملكة تلمسان... كان بها لأمير تلمسان قائمون على الجمارك يحصلون الرسوم**»[27].

الخاتمة :

من خلال ما مر ذكره يمكن القول، أن مدينة وهران في العصر الوسيط، عرفت ازدهار اقتصادي بسبب موقعها الساحلي وميناءيها المرسى الصغير والمرسى الكبير، رغم المشاكل السياسية التي أدت إلى تخريبها عدة مرات ونهب الزيانيين لمداخيلها.

المصادر والمراجع والهوامش

1 - إسماعيل العربي: المدن المغربية المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر الجزائر 1984 ص 140، يحي بوعزيز: وهران، منشورات وزارة الثقافة والسياحة ومديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث الجزائر المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر1985 ص31-33.

2 - ابن حوقل: صورة الأرض، ط2، مطبعة بريل ليدن هولندة 1938 ص77، يحي بوعزيز:المرجع السابق، ص37.

3 - ابن حوقل: المصدر السابق، ص77-78، يحي بوعزيز:المرجع السابق،ص37. إسماعيل العربي: المرجع السابق، 140-141.

4 - ابن حوقل: المصدر السابق، ص 78، يحي بوعزيز:المرجع السابق، ص37. إسماعيل العربي: المرجع السابق، 140-142.

5 - البكري: كتاب المسالك والممالك ج2، حققه وقدم له وفهرسه ادري فان ليوفن واندري فيري، بيت الحكمة قرطاج تونس والدار العربية للكتاب 1992، ص738، إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص140-141

6 - البكري: المصدر السابق، ح2، ص738،إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص140-141 يحي بوعزيز:المرجع السابق،ص39.

7 - البكري: المصدر السابق، ح2، ص740، يحي بوعزيز:المرجع السابق، ص39. إسماعيل العربي: المرجع السابق، 140-142.

8 - البكري: المصدر السابق، ح2، ص738-739، إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص140-141، اسماعيل العربي: المرجع السابق، 142-140.

9 - الإدريسي:القارّة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1983،إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص140-141،، يحي بوعزيز:المرجع السابق،ص39.

10 - الإدريسي: المصدر السابق،ص، إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص140-141،

11 - الإدريسي: المصدر السابق،ص، إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص140-141، يحي بوعزيز:المرجع السابق،ص391

12 - الإدريسي: المصدر السابق،ص، إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص140-141

13 - أبو الفدا: تقويم البلدان، تحقيق البارون ديسلان ،باريس فرنسا 1840، ص123، يحي بوعزيز:المرجع السابق،ص45.

14 - أبو الفدا: المصدر السابق، ص128، يحي بوعزيز:المرجع السابق،ص45.

15 - الوزان الفاسي: وصف أفريقيا ،ج1،تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1989،ص51، يحي بوعزيز:المرجع السابق، ص45.

16 - الوزان الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص30 ، يحي بوعزيز:المرجع السابق،ص45.

17 - الوزان الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص30، يحي بوعزيز:المرجع السابق،ص45

18 - الوزان الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص31 ، يحي بوعزيز:المرجع السابق،ص45

19 - الوزان الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص30، يحي بوعزيز:المرجع السابق،ص45

20 - الوزان الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص31 ، يحي بوعزيز:المرجع السابق،ص45

21 - الوزان الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص15، 30، يحي بوعزيز:المرجع السابق، ص45

22 - يحي بوعزيز:المرجع السابق،ص45 وما بعدها

23 - مارمول كبرخال: أفريقيا ،ج2،ترجمة محمد حجي ، محمد زنيبر ، محمد الأخضر، احمد التوفيق، أحمد بنجلون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرباط المغرب 1984، ص328-329

24 - مارمول كبرخال: المصدر السابق،ج2، ص329.

25 - مارمول كبرخال: المصدر نفسه،ج2، ص329.

26 - مارمول كبرخال: المصدر نفسه،ج2، ص329-330.

27 - مارمول كبرخال: المصدر السابق،ج2، ص329-331.